من أجل أمي

ميسر المَزارعة

كانت الروضة مرحلة البدء والتحدي، وبدايات الصدام وأول المعرفة والإصرار. في عائلتي، كان لي أخ من زوجة أبي في عمري نفسه، كنا نتقاسم ظروف الحياة نفسها، ولكن والدي وفر له الإمكانيات لدخول الروضة، في حين رفض أن يدخلني، لأنه من وجهة نظره ليس من الضروري أن أتعلم، ولكن أمي رفضت ذلك، وسعت إلى إدخالي إلى الروضة، فكانت هي من تدفع القسط عني. أثر هذا الموقف على إصراري على التعليم وتحقيق طموح أمي ومكافحة كل ما كان يواجهني، ليس من أجلي أنا فحسب، بل من أجل أمي التي وقفت بجانبي، لذلك كنت، منذ صغري، وأنا أحلم بأن أكمل تعليمي، والحصول على شهادة جامعية والعمل، ولقد حققت ذلك فعلاً.

جدارية قام برسمها أطفال روضة سنابل الإيمان ضمن مشروع تبادل مربيات الطفولة المبكرة، 2016.

في المرحلة الأساسية أذكر حادثة صغيرة لم أنسها حتى اليوم؛ ففي صباح أحد الأيام، جاء والد أحد الطلبة إلى صفنا وقام بضربه ضرباً مبرحاً وعنيفاً جداً، ولا أنسى كيف حمله ورماه في مشارب الروضة. هذه الحادثة ضاعفت كرهي للآباء، فقد تعامل هذا الوالد مع طفله وكأنه ليس ابنه. كم حزنت على ذلك الطفل، وفي كل مرة حتى الآن أصادف هذا الطفل الذي أصبح شاباً، أتذكر الحادثة وبكل تفاصيلها.

في الصف الأول، كانت هناك معلمة كبيرة في السن لم أحبها لهذا السبب، وبكيت عندما دخلت صفنا لأول مرة، ولكن عندما بدأت بتدريسي وتعليمي أحببتها كثيراً؛ فقد كانت طيبة وحنونة جداً معنا، لا تغضب أو تصرخ في وجهنا، وأذكر أنها كانت تقوم بتمشيط شعور الطالبات، وتطعمنا من طعامها عندما لم يكن معنا «عصرونة».

أصعب مرحلة كانت في الصف السابع، وبخاصة في مادة الرياضيات، ومع أنني كنت أحب هذه المادة، فإنني كرهت مادة الرياضيات كثيراً بسبب تعامل المعلمة معنا، فكنا إذا لم نسرع في حل مسألة رياضية، أو تكون إجابتنا خاطئة، تقوم بضرب الطالبة بالكتاب على رأسها، وفي بعض الأحيان تضرب رأسنا باللوح، وكم كنت أكره ذلك. استعدت حبي لمادة الرياضيات في الصف العاشر، وكانت هذه أجمل فترة في حياتي؛ لِما كان فيها من حب وتعلق بالمدرسة، ولأنه كانت هناك معلمة رائعة ومبدعة جداً اسمها سناء، كانت تبسّط لنا المادة، وإذا أخطأنا تترك لنا المجال لاكتشاف الخلل وإصلاحه. كان لذلك التعامل أثر كبير عليَّ، فأحببت جميع المواد التي كانت تدرِّسها؛ العلوم والرياضيات،

وكنت من المتفوقين الأوائل، أشارك كذلك في أنشطة لا منهجية مثل تقديم تجارب علمية في معرض علمي نظمته المدرسة.

في الصف العاشر، حدث معي موقف بسيط أثر فيَّ، كانت ابنة عمي زميلتي في الصف، جاءت أختها لتسأل عنها خلال حصة اللغة الإنجليزية، فمدحت المعلمة ابنة عمي كثيراً، فيما قالت عني أنني لا بأس بي، غضبت وبكيت جداً يومها، لأنني كنت نجيبة، وبخاصة في مادتها. وقفت المعلمة سناء إلى جانبي وطلبت مني أن لا أبكي، بل أتحداها وأثبت لها أنها كانت مخطئة بحقي. وفعلاً فاجأت معلمة اللغة الإنجليزية في نهاية الفصل، فكنت من العشرة الأول في هذا الصف، وكنت الوحيدة التي حصلت على علامة كاملة في امتحان اللغة الإنجليزية. تفاجأت من نفسي يومها كيف استطعت أن أحصل على علامة كاملة، صحيح أنني درست وتعبت جداً، إلا أنني لم أتوقع ذلك. تحدثت عني معلمة اللغة الإنجليزية أمام المعلمات الأخريات، وكانت معلمة الرياضيات من بينهن، فجاءت عندي وقالت أحسنتِ الصنع، لقد أثبتِ جدارتك. وفي هذه المرحلة اخترت الانتقال للفرع العلمي، وكانت آخر سنة في هذه المدرسة.

انتقلت بعدها إلى مدرسة جديدة، وبيئة وطالبات ومعلمات جديدات. كانت مرحلة هادئة وجميلة، درست فيها سنتين، وعانيت فقط من التأقلم مع الطالبات. أما بالنسبة لامتحانات الثانوية العامة «التوجيهي»، فلم أنجح من السنة الأولى لحدوث حالة وفاة في العائلة أثناء فترة الامتحانات، لم أتمكن من تقديم مادتين. ولقد رفضت العائلة أن أستمر في التعليم وأعيد استكمال المادتين، ولكن أخي وأمي اعترضا ووقفا إلى جانبي ونجحت، وتمكنت من دخول الجامعة. كانت المشكلة داخل عائلتي أنه لم يسبق أن وصلت إحدى فتيات العائلة لهذه المرحلة من التعليم (الجامعة)، فتعرضتُ لانتقادات وهجوم شديدين وأسئلة من نوع كيف؟ ولماذا؟ وهل يلزم؟ تكفل أخي بمصاريف الجامعة، أما التخصص فكنت أحب أن أدرس الحقوق والإدارة العامة، إلا أنني أخترت حلم أمي، وهو أن أكون معلمة، لأنها وظيفة «يمكن» أن أمارسها.

انقضت سنين الجامعة، وتخرجت. في البداية، ذهبت إلى التطوع في روضة مدرسة العودة الأساسية المختلطة في العيزرية، وكان تطوعي لمدة شهر فقط. وكان هناك معلمة متميزة ومبدعة بأسلوبها وطريقة تعاملها مع الأطفال. وفي هذه الأثناء، اتصلت بي مديرة مدرسة جيل الأمل للعمل معهم، وهي مدرسة تشمل قسماً داخلياً، وعملت هناك كمعلمة رياضيات وعلوم لمدة ثلاث سنوات. أول يوم عمل في مدرسة جيل الأمل لم أكن أعرف أن هناك أطفالاً أيتاماً، دخلت إلى الصفوف الرابع والخامس والسادس لأتعرف عليهم. وبعد مدة لاحظت أن هناك اختلافاً بين الطلاب من حيث الملابس، والكلام، والتصرفات. كان طلاب القسم الداخلي أكثر سيطرة وسلطة في الصف والمدرسة. ومرت الأيام، كانت الشهور الثلاثة الأولى عادية، وكنت متأقلمة في المدرسة، لكن في السنة التالية بدأت التعمق والتعرف على الطلاب أكثر. في أحد الأيام، تفاجأت من طالب في القسم الداخلي يقول: «مس أنا بحبك كثير وبحب أن أدرس مادتك، لكن لا أحب اسمك، لأنه يشبه اسم زوجة أبي، وأنا لا أحبها، لأنها لا تريدنا، وقام أبي بوضعنا هنا». شعرت بالحزن الشديد عليه، وتذكرت الحالات الكثيرة في القسم الداخلي. عندما بدأت بتدريس الصفوف الصغرى، واجهتني مشكلة مع طالب في الصف الثاني يكره النساء بشكل عام، ويكره هذا المكان لأنه منذ ولادته جاءت به أمه إلى هذه المدرسة. حاولت التقرب منه، وعرفت كم كان يتمنى أن يرى أمه وأن تحضنه. كان سلوكه عدوانياً جداً، ويضرب بشكل عنيف كنوع من إثبات ذاته. في أحد الأيام حصل على علامة عالية معي، وكان ملتزماً ومتفوقاً في حصتي، فوعدته بمكافأة وأحضرت له سيارة كبيرة تعمل على ريموت كونترول. وفي أحد الأيام كنت مشغولة وأراد التحدث معي، ولم أستمع له، وتفاجأت بأنه قام بتكسير السيارة وإحضارها لي لكي أراها، وعندما سألته عن السبب، قال: «أنا لا أحبك .. أكرهك». لقد أثر فيَّ هذا الموقف.

مدرسة العودة الأساسية المختلطة/ العيزرية

طفلة من روضة سنابل الإيمان خلال مشاركتها في جولة في بلدتها رافات ضمن مشروع تبادل مربيات الطفولة المبكرة الذي ينظمه برنامج البحث والتطوير التربوي، 2016.